مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

رأس السنة الجديدة في بني سنوس: عادات ومعتقدات

The New Year in Beni Snous Habits and Beliefs

زمام ربيع، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر

rabie_e@outlook.fr

راشدي بن يمينة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر

habib.rach@yahoo.fr

ملخص:

سنحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن جملة العادات والتقاليد، والمعتقدات والتصورات المرتبطة برأس السنة الأمازيغية الجديدة، أو العام أو "الناير" كما هو معروف لدى سكان منطقة بني سنوس، من خلال عرض أهم الدراسات التي ركزت على الجوانب الثقافية للمجتمع السنوسي، ونقصد بذلك دراستي كل من إيدموند ديستان ومحمد بن حاجي سراج حول العادات والمعتقدات المتعلقة برأس السنة الأمازيغية الجديدة في منطقة بني سنوس.

الكلمات المفتاحية:

بني سنوس، الناير، العادات، المعتقدات.

Abstract :

In this study, we will attempt to reveal the range of customs, traditions, beliefs and percpections, wich are associated with the Amazigh new year, or « Yennayer » as it is known to the habitants of the area « Beni-Snous », by presenting one of the most important studies that focused on the cultural aspects of the Snoussi community, we mean by that of each study of « Edmond Destaing » and « Mohamed Ben hadji Seradj » about traditions and beliefs related to the Amazigh new year in the area of « Beni-Snous ».

Key words :

Beni-Snous, Yennayer, traditions, beliefs.

مقدمة:

لم تصبح منطقة بني سنوس، 35 كلم جنوب غرب مدينة تلمسان موضوعا للبحث العلمي، إلا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، والعقد الأول من القرن العشرين، حينما خصها الباحثون الفرنسيون ببعض الدراسات التاريخية والأثرية والإثنوغرافية والمونوغرافية.

ففي سنة 1861 أصدر **جوزيف كانال** دراسته المونوغرافية عن دائرة تلمسان (كانت تلمسان في هذا التاريخ دائرة تابعة إداريا لولاية وهران)، وخص فيها منطقة بني سنوس بمبحث خاص، جاعلا منها بذلك "محلا للاهتمام والمعاينة لا تكفي الإشارة إليها في سياق التطرق لمسألة جغرافية أو تاريخية أو سياسية أو دينية، بل تكرس لها دراسات خاصة بوصفها وحدة طبيعية وثقافية[1]".

ومن بين هذه الدراسات دراسة **إدموند ديستان** الإثنولوجية التي خص بها لهجة بني سنوس البربرية[2] ، و**دراسة ألفرد بل** التي عنيت بقرى ومساجد بني سنوس التاريخية والأثرية[3]، والدراسات حول رأس السنة الأمازيغية التي جعل كل من **إدموند ديستان ومحمد بن حاجي سراج** موضوعها الفولكلور والثقافة الشعبية، وضمناها معاينات هامة عن المواسم الزراعية والعادات والمعتقدات والاحتفالات والممارسات الطقوسية الدينية والسحرية[4].

ولقد أولى هذان الباحثان اهتماما خاصا للأعراس والأعياد والعادات والمعتقدات المرتبطة برأس السنة الزراعية، حتى أصبح بفضل هذه الدراسات مجتمعة إمكان تكوين فكرة عن منطقة بني سنوس وتاريخها، وأصبح ممكنا الاستعلام عن سكانها ونشاطاتهم الاقتصادية ومعتقداتهم وأساطيرهم، وعن الصورة التي رسموها لأنفسهم وعن الدور الذي لعبوه في الحركات المذهبية بالمغرب الإسلامي وفي قيام وازدهار بعض الدول الإسلامية وخصوصا منها الدولة الزيانية[5].

إن رأس السنة الزراعية هذا هو الذي يعتبره البعض رأس السنة الأمازيغية، وهو يبدأ في منطقة بني سنوس في يوم 14 يناير من السنة الغريغورية ويسميه السكان هنا " الناير".

ونظرا لبعض الاختلافات في ما سجله **إدموند دستان ومحمد حاجي سراح**، فإننا سنعرض لكل دراسة قام بها الباحثان على حدة.

أولا : الناير حسب دراسة إدموند ديستان

لجمع معلومات عن الناير في منطقة بني سنوس، وفي مدينة تلمسان وضواحيها، يلجأ الباحث إلى أشخاص هم تلاميذه بالمدرسة الفرونكو إسلامية أو معلموا القرآن، ويسجل ما يصرحون له باللهجة البربرية، ثم يترجم ذلك وقارنه بما هو متضمن في الكتب، ثم يعرض ذلك دون تحليل معمق، إنما يورد النص ثم يتبعه بتعليقات في الهامش، تتضمن المقارنة خصوصا عندما يتعلق الأمر بالعادات والمعتقدات التي يشترك فيها المسلمون مع أهل الكتاب اليهود أو النصارى.

حسب إدموند ديستان، فإن رأس السنة الزراعية في منطقة بني سنوس مناسبة تتراوح مدتها بين أربعة أيام إلى سبعة أيام لا يتناول الناس خلالها من الأكل إلا ما كان باردا، ويكون موعد الناير مسبوقا بتحضيرات وتوفير للمواد الضرورية لإعداد ما يلزم الإحتفال بالمناسبة، من وقود وسميد وبيض ودجاج وغيرها، بحيث تمر المناسبة، دون أن تحتاج الأسر فيها إلى شيء[6].

فإذا كان اليوم الأول من الناير فإن الأطفال والنساء يسعون منذ الصباح الباكر لجلب النباتات الخضراء، والدوم وأغصان الزيتون والإكلي والبرواق والعنصل والضرو والخروب والكلخ والسانوج من الغابات المجاورة للقرى لإلقائها على سطوح المنازل وتركها تجف[7]، ويرتبط بهذه العادات اعتقاد شعبي مفاده أن هذه النباتات الخضراء لها أثر سعيد على مصير السنة الجديدة التي سوف تكون مثلها خضراء، ويحرص السكان على أن تكون بعض أغصان الأشجار مرة المذاق مثل الكروش والعرعر والدرياس، لما يعتقدونه من أن مرارة النبات تدفع مرارة السنة فيقضي السكان عامهم في حالة من المتعة والحلاوة والسعادة[8].

وفي صباح هذا اليوم أيضا تعمل ربات البيوت على تغيير أثافي الموقد لاستقبال السنة بموقد جديد، بل ويحرصن على إيقاد نار في السنة الجديدة بحزمة جديدة من الحلفاء جلبها الأطفال باكرا من الجبل في نفس اليوم، ومن جهتهم فإن الرجال يسعون مجتمعين في كل قرية لذبح ما يحتاجون إليه من الغنم أو الماعز لتوفير اللحم الذي لا يتم أكله إلا في اليوم الثاني من الناير، وقد كانوا قبل سنين يقومون بغارات صيد ليوفروا ما تحتاج إليه المناسبة من حجل

وأرانب، ولا تكتفي الأسر بذلك بل إن كل أسرة تذبح ما تحتاج إليه من الدجاج حسب عدد أفرادها والذي كانت قد سمنته للمناسبة منذ شهور[9].

وفي هذا اليوم، ليس طعام العشاء سوى كسكسي غليظ بالحليب، وهو طبق تقليدي تتناوله الأسر، وتتناوله معها سكان الدار من الأرواح، حيث توضع حبيبات منه فوق الموقد وعلى أعمدة البيوت، ومن العادة ألا يغسل في هذا اليوم من أواني الأكل شيء ولا من أواني الطبخ ولا من ملاعق وتمتنع الأسر من نفض سلة الخبز والكسكاس* من الفتات، لاعتقاد الناس أن الجِنة تنتظر منهم ذلك لتشاركهم الاحتفال بالمناسبة[10].

وتعمل النساء بالمناسبة على تحضير مجموعة من الأكلات التقليدية "السفنج والثريد"، وتصنعن من التين الجاف والرمان والبرتقال والجوز أكاليل يضاف إليها خبز يسميه أهل المنطقة "ثجعوث"، وهو عبارة عن خبز مدور متوسط الحجم توضع في وسطه قبل طهيه بيضة تثبت بقطع مستطيلة من العجين، وهو غالبا ما يقدم على شكل هدايا للأسر الصديقة، كما تصنع النساء حلوى البيض والزبيب، هي المعقودة التي يدخل في تركيبها إضافة إلى هذين المادتين السكر والخميرة والتي تطهى بقليها في زيت الزيتون[11].

ومن العادة في هذا اليوم امتناع الناس عن أكل خبز الشعير واستبداله بخبز القمح، وعدم رمي قشور البيض في الطريق لاعتقادهم أن الذي يمشي عليها في هذا اليوم يتعرض للخطر.

وتعرف هذه المناسبة حالة من التكافل الاجتماعي، حيث يوزع الموسرون على الفقراء في كافة قرى بني سنوس شيء من التين والرمان والخبز، فيتم بذلك مشاركة الأطفال الفقراء أقرانهم الموسرين فرحة هذا العيد.

وإلى جانب هذه العوائد والمعتقدات يقوم الشباب ببعض الألعاب بالمناسبة، حيث يصنعون مع اقتراب الليل أسدان للترفيه، هما عبارة عن شخصين يمثل أحدهما جانبه الأمامي والآخر جانبه الخلفي، يضمهما لباس واحد هو عبارة عن كيس من الشعر مشدود بضفائر من الحلفاء، وبينما يمشي هذا الأسد زائرا في اتجاه البيوت، تتبعه جماعة من الشباب تقتاده وتنادي في الأسر:

* الكسكاس : وهو عبارة عن آنية تستخدم للطبخ.

" أعطونا شيء يتعشى به الأسد"، فيجمعون ما أمكنهم من خبز وثريد وتين وسفنج ويتوجهون بذلك إلى مكان معلوم لاستهلاكه، ولا يفوت الأسد وجماعته أن يملئوا الجو رقصا لإمتاع السكان الذين أكرموهم وخصوصا لإدخال البهجة على الأطفال.

ومن العادة أيضا أن يتوجه أرباب البيوت بعد العشاء على أنعامهم للاستخبار عن أحوال السنة الجديدة فيبدءون بمساءلة النعاج عن ما إذا كانت السنة ستكون حسنة أو سيئة. فإذا ثغت فإن العام سيكون حسنا وإلا فإنهم يتوجهون نحو الأبقار، فإذا هي ردت بخوارها فإن العام سيكون متوسط المحصول، وإلا فإنهم يتوجهون نحو الماعز فإذا هي ثغت كان العام ضعيف المردود فإن لم ترد أي واحدة من الأنعام فإن العام سوف يكون سيئا.

ويصنع شباب القرى خصوصا أهل الكاف منهم في اليوم الثاني من الناير جملا بأعمدة الحطب وعظم رأس الحصان أو بغل أو حمار أوغصن أشجار مع شد الكل بضفائر من الحلفاء لإعطائه شكل جمل، ويحمل الكل ثلاثة رجال مقنعين بغطاء ويطاف بالجمل كما طيف بالأسد وتسأل الأسر أن تعطي شيئا يطعم به الجمل[13].

ويعتقد سكان بني سنوس حسب دراسة إدموند ديستان أن الاكتحال بالإثمد في أول يوم من الناير يقوي البصر إذا نظر ليلا في السماء بعد وضعه في العينين من خلال غربال والقيام بحساب النجوم[14]. كما يعتقدون أن أعمال النسيج مثل صناعة الحصير، إذا أقبل الناير وهي في النول لم يفرغ النساء من إنجازها، فإن شرا ما سوف يقع لذلك تسارع النساء في إنجاز أي نسيج قبل حلول موعد الناير، فإن لم تستطعن وجب عليهن أن تنزعهن من نوله، وتحملهن إلى مكان بعيد في الجبل لإعادة تركيبه بعد مرور الناير لإكمال إنجازه[15].

لم تشر دراسات إدموند ديستان إلى أكثر من هذه العادات والمعتقدات، وقد سجلها الكاتب كما أمليت عليه، ثم أثراها بالرجوع إلى دراسات أخرى تشترك معه في الموضوع. وإلى كتب التراث التي تهتم بالعادات والمعتقدات الشعبية، كما هو الشأن بالنسبة لكتاب المدخل لإبن الحاج العبدري[16].

ثانيا :الناير حسب دراسة محمد بن حاجي سراج

يتطرق محمد بن حاجي سراج إلى الناير في دراستين هما : احتفالات الناير في بني سنوس[17] والشتاء لدى فلاحي بني سنوس[18] في الدراسة الأولى يشير الباحث إلى أن الناير يلعب دورا كبيرا لدى سكان بني سنوس لكونه يحدد رأس السنة وبداية النصف الثاني للشتاء

وبداية المرحلة الثانية لليالي السود[19] ، لذلك فإن السكان يحتفلون بالمناسبة بصورة متألقة تحبب الأنظار عن كل ما يقام في الأماكن الأخرى من احتفالات بمناسبة الأعياد الدينية[20]، ويفتتح العام الجديد بجلب الخضر إلى الدار تفاؤلا بها ليكون العام أخضر وافر الغلال.

ومن المعتقدات في هذا اليوم أن العجين المحضرة لإعداد السفنج إذا فاضت عن الأطراف الآنية التي تحتويها فإن ذلك علامة خصب للسنة الجديدة، الأمر الذي لم يشر إليه إدموند ديستان وحتى لا يعبر أحد فرحة بذلك، ضيفة قطع الثروة التي بشر بها فيضان العجين، فإن من العادات أن تذهب لمشاهدة العجين امرأة عجوز، امرأة حكيمة قادرة على كتمان فرحتها والمحافظة على هدوئها ورزانتها أمام الإعجاب بهذه البشرى السعيدة[21]، ويجد بن حاجي سراج أنه في هذا اليوم يتم استهلاك كمية كبيرة من الفواكه الجافة وأنه في القرى العزايل تذبح دجاجة لكل فرد من العائلة[22].

وفي إطار حديثه عن الناير، يميز بن حاجي سراج بينما تقوم به الأسرة من عوائد من آخر يوم من السنة المنصرمة وأول يوم من السنة الجديدة يعمل في آخر يوم من السنة المنصرمة ومنذ الفجر على تغيير الأثاثي، ويراعي أن يردمه في موضع "الكانون" عظم وقليل من السكر والقهوة، لاعتقاد الناس بأنه مجلب لأشياء نادرة، وهذه العادات وما يرتبط بها من معتقدات أمر لا يشير إليه إدموند ديستان في دراسته المشار إليها آنفا[23].

ولربط الدجاج بالبيت ومنعه من وضع بيضه في الخارج، لدى الجيران أو في الطبيعة، تحضر ربة البيت دجاجها، وتمسك بها دجاجة دجاجة وتدورها حول الموقد سبع دورات مرددة العبارة المشهورة : "حانونو زانونو ما يفارق كانونو"[24].

كما يتم في هذا اليوم تنظيف كل البيوت لاستقبال العام الجديد والاستعداد للاحتفال به، فإنه يعمل على استرداد الأشياء المعارة، واعتقادا من الناس بأن بقاءها عند من استعارها يذهب بخير صاحبها إليه، وترمى في بعض الأسر خارج البيوت كل الأواني الفخارية المستعملة خلال السنة، واستبدالها بأواني جديدة لرهاب قديم بالشر، وجلب الجديد للخير.

وحسب بن حاجي سراج، فإن تحضير الحلويات الخاصة بالناير تبدأ في هذا اليوم وليس في يوم رأس السنة، وتوجد العادة أن تكون أقراص الخبز المعدة بالبيض ودقيق القمح بأعداد زوجية، على ألا تؤكل قبل موعد الناير، ولجلب السعادة والرفاه والخصب إلى الدار، توضع أقراص الخبز في أطباق حلفاوية كبيرة، ويوضع فوقها التين الجاف والتمر والجوز والرمان، ويوزع بعضها في الغد على المحتاجين[25].

ومما يمتنع عنه في هذا اليوم أعمال الخياطة ابتداءا من منتصف النهار، خيفة الإصابة بمرض الداحوس أو الرعدة، والتمشيط خيفة فقدان "شعرة الحظ"، وأكل الكسكسي تجنبا للجفاف، خلال ثلاثة أيام، آخر السنة ويوم يناير، ويوم بعده وتؤكد الأسر على حضور أفرادها المغتربين بمناسبة رأس السنة الجديدة، ومن لم يعد إلى مسقط رأسه قبل نهاية السنة فإنه يوشك أن يتيه بعيدا عن البلد إلى غاية السنة المقبلة، أو يتعرض احتمالا إلى خطر المتوفي السنة المقبلة[26].

أما أول يوم في "الناير" فإنه هو الآخر مليء بالتفاؤلات والتطيرات، وأهل بالعديد من المحرمات. وأول ما يظهر فيه عادة استقباله بالخضرة، كما أشار من قبل إدموند ديستان، لا ينبغي في هذا اليوم إعارة النار أو الملح أو العجين أو مواعين الطبخ، ولا ينبغي جلب مكنسة جديدة. فكل هذه الأمور إذا لم تحترم، فإنها توشك أن تطرد الرزق من البيت. ولدى قلي الفطائر المحلاة والحلويات تحرص ربة البيت على ألا تحرق من ذلك شيء، فحرق الطعام، في هذا اليوم نذير شؤم بعام عرضة للجفاف[27].

ومن العادة أيضا أنه إذا مخض أول الحليب في السنة، فإن الزبدة تعطي إلى معلمي القرآن، ويرد هؤلاء على الهدية بكتبة تمائم للواهب لتعليقها على أعناق الأغنام، للحصول على منتوج وافر من الحليب، وإبطال محاولة سرقة الحليب والزبدة من قبل الجيران. فالمعتقد أن الجار أو أي إنسان يملك الأغنام، يمكنه أن يسرق حليب الآخرين بطرق سحرية، فتمتلئ ضروع أنعامه وتجف ضروع الأنعام المسحورة.

ومن العادة في هذا اليوم القيام باحتفالات "شاخ" والتي هي مختلفة نسبيا حسب القرى، وهو يأخذ اسمه من الفعل شاخ أي أصبح شيخا، حيث يقوم أحدهم بارتداء ملابس يرتديها عادة المسنون، ويقوم بوضع لحية، ليمثل دور الشيخ الكبير، وهدف هذا الشيخ هو الطواف في القرية وجمع نصيب طلبة القرآن من خبز المناسبة وحلوياتها وفواكهها، الأمر الذي يعكس التضامن الاجتماعي الذي يلعب قدامى القرية دورا في بقائه واستمراريته الحفاظ عليه، وفي ذلك إضافة إلى التضامن حث طلب العلم والتشجيع عليه، وإكرام لمن يهاجرون إلى المنطقة في سبيل العلم آملين أن تضمن لهم القرى المهاجر إليها حاجاتهم من الطعام والأمان.

خاتمـــة :

تعطي هذه العادات والمعتقدات صورة عن الثقافة الشعبية التي كانت في المجتمع التقليدي تنظيم الحياة الاجتماعية كلها ففي مجتمع يحتاج إلى التماسك والتكافل والتضامن

من أجل إنتاج الضروري من المعاش كما يقول ابن خلدون، لعبت هذه العادات والمعتقدات المرتبطة بها دورا هاما في تنظيم الاقتصاد المنزلي وفي الحث على العمل المنتج وفي تنظيم علاقات التعاون بين أفردا القرية، وفي استغلال أوقات الفراغ، وفي الترفيه عن النفس بالألعاب والاحتفالات، وفي الحفاظ على التواصل بين الأجيال المختلفة.

ومن هنا لم يكن مهما تأصيل هذه العادات والمعتقدات دينيا أو علميا بقدر ما كان يهم الوظيفة التي تلعبها في تعزيز الرابطة الاجتماعية داخل القرى، لمواجهة قوى الطبيعة وضمان البقاء.

الهوامش :

(1) Josef Canal, Monographie de L'arrondissement de Tlemcen, 2 partie, Lke Tell, Oran, Bulletin de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, 1891.

و أيضا :محمد حمداوي، البنيات الأسرية ومتطلباتها الظيفية في منطقة بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين، أطروحة دكتوراه دولة في علم الإجتماع، وهران، كلية العلوم الإجتماعية، 2005، (المقدمة).

(2) Edmond Destaing, Etude sur le dialecte berbére des béni Snous, Paris, Leroux, T1 (Grammaire) 1907, T2 (Textes), 1911, T3 (Dictionnaire francais-berb"re, le dialecte berbére des Béni-snous, congrés des Orientalistes, T2, 1905

(3) Alfred bell, Les Béni-snous et leurs mosquées, Bulletin Archéologique,1920.

وألفر بل، بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين، ترجمة مجمد حمداوي، وهران، دار الالغرب للنشر والتوزيع، 2001.

(4) Edmond Destaing, L'ennayer chez les Béni-snous, Rev Africaine,1 trimestr, 1905, Fetes et coutumes saisonnoéres chez les Béni-snous; Rev. Africaine, 1907, Mohammed Benhadji-Serradj, Les fetes d'Ennayer aux Béni-snous, IBLA 13 Tunis, 1951, Qorrayat, IBLA 13 Tunis, 1950, Le retour du

printemps, IBLA, 14 Tunis, 1951, L'hiver chez les fellahs tlemceniens, IBLA, 15, Tunis 1952 l'été aux Azails: les travaux et les jours, IBLA tunis 1952.

و أيضا :إدموند ديستان، محمد بن حاجي سراج، بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين، عناصر من الثقافة الشعبية، ترجمة :محمد حمداوي وهران، دار الغرب النشر والتوزيع 2002.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، المجلد السابع، 1992 ص 134، و :ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح الإسلامي إلى اليوم، ترجمة :عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987.

(6) إدموند ديستان، محمد بن حاجي سراج، بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين، مرجع سابق، ص2

(7) نفس المرجع.

(8) نفس المرجع.

(9) نفس المرجع.

(10) نفس المرجع، ص3، 13

(11) نفس المرجع، ص4.

(12) نفس المرجع، ص4، 5.

(13) نفس المرجع.

(14) نفس المرجع.

(15) نفس المرجع.

(16) ابن الحاج العبدري، كتاب المدخل، القاهرة، 1320هجري

(17) محمد بن حاجي سراج، إحتفالات الناير في بني سنوس، في :بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين، مرجع سابق، ص64.

(18) محمد بن حاجي سراج، الشتاء لدى الفلاحين التلمسانيين، في :بني سنوس في النصف الأول من القرن العشرين، مرجع سابق، ص80.

(19) محمد بن حاجي سراج، إحتفالات الناير في بني سنوس، مرجع سابق، ص64.

(20) عن التحضير للإحتفال بالناير وتموينه بالمواد الضرورية والفواكه الجافة والدجاج والبيض، لم يز الكاتب هنا كثيرا عما قدمه إدموند ديستان. :نفس المرجع.

(21) نفس المرجع، ص65.

(22) نفس المرجع.

(23) محمد بن حاجي سراج، الشتاء لدى فلاحي بني سنوس، مرجع سابق، ص80.

(24) هذه العبارة تقال أيضا عن الرجل الكسول الملازم للبيت بدلا من الخروج للعمل. فهي تفيد التأثير بسحر اللفظ وميزته التهكمية. :نفس المرجع.

(25) نفس المرجع، ص81

(26) نفس المرجع، ص82.

(27) نفس المرجع، ص 83.